المحاضرة الثالثة:

المحسنات المعنوية في البلاغة العربية: التورية – الاقتباس والتضمين

محاور المحاضرة:

أولا: التورية.

ثانيا: الاقتباس والتضمين.

أولا: التورية

1-مفهوم التورية:

أ/ لغة: التورية مصدر وَرَيْتُ الحديث: إذا أخفيته وأظهرت غيره، وقال أبو عبيدة: "لا أراه إلا مأخوذا من وراء الإنسان، فإذا قال: وريته فكأنه جعله وراءه بحيث لا يظهر".

ب/ اصطلاحا: التورية في الاصطلاح أن يذكر لها معنيان؛ إما بالاشتراك، أو بالتواطؤ، أو الحقيقة والمجاز، أحدهما قريب ودلالة اللفظ عليه ظاهرة، والثاني بعيد ودلالة اللفظ عليه خفية. فيقصد المتكلم المعنى البعيد، ويوري عنه بالقريب، فيتوهم السامع أنه يريد القريب من أول وهلة، ولهذا سمي إيهاما، كما سمي توجيها وتخيّلا، والتورية أولى في التسمية لقربها من مطابقة المسمى، نحو قوله تعالى: "قَالُوا تَاللَّهِ إِنَّكَ لَفِي ضَلَالِكَ القَدِيمِ"، فالضلال هنا يحتمل الحُبّ وضد الهدى، وكيف استعمله أولاد يعقوب عليه السلام ضد الهدى، فوروا به عن الحب ليُعلم أن المراد ما أهملوا لا ما استعملوا.

2-أركان التورية:

للتورية ركنان هما:

2-1-المُورَى به: وهو المعنى القريب للفظة الذي يقصد إليه المتكلم ويستر به سواه.

2-2-المُورَى عنه: وهو المعنى البعيد المستور الذي يعنيه المتكلم.

3-أنواع التورية:

قسّم القزويني التورية على أساس ما يذكر معها إلى قسمين هما: المجرّدة والمرشّحة، ثم زاد عليها المتأخرون من علماء البلاغة: المبيّنة والمهيّأة.

3-1-التورية المجردة: هي التي تنجرد عما يلائم كلا من المعنيين، أي المورى به والمورى عنه، نحو قوله تعالى: "الرَّحْمَانُ عَلَى العَرْشِ اسْتَوَى"، فإن الاستواء يطلق على معنيين هما الاستقرار في مكان، والقدرة. والتورية في الآية الكريمة لم تجامع شيئا يلائم المورى به ولا المورى عنه.

3-2-التورية المرشحة: هي التي تجامع ملائما للمعنى القريب المورى به، نحو قول شاعر في امرأة اسمها شجر: يَا حَبَّذَا شَجَرُ وَطِيبُ نَسِيمِهَا *** لَوْ أَنَّهَا تُسْقَى بِمَاءٍ وَاحِــدِ. الشاهد في (شجر) يحتمل ما له ساق من النبات وهو المعنى المورى به، ويحتمل اسم المرأة وهو المعنى المورى عنه وهو المقصود.

3-3-التورية المبيّنة: هي التي تجامع ملائما للمعنى البعيد المورى عنه، إما قبلها أو بعدها، نحو قول الشاعر: أَمَا وَاللهِ لَولاَ خَوفُ سُخْطِكِ *** لَهَانَ عَلَيَّ مَا أَلقَى بِرَهْـطِـكِ

مَلَكتِ الخَافِقَينِ فَتُهْتِ عَجَبًا *** وَلَيسَ هُمَا سِوَى قَلْبِي وَقُرْطِكِ

أراد الشاعر بلفظ (الخافقين) قلبه وقرط محبوبته، وهذا هو المعنى البعيد المورى عنه، وقد بينه الشاعر بالنص عليه في المصراع الأخير (وَلَيسَ هُمَا سِوَى قَلْبِي وَقُرْطِكِ)، ويحتمل أن يريد المشرق والمغرب، وهذا هو المعنى القريب المورى به.

3-4-التورية المهيأة: هي التي تفتقر إلى ذكر شيء يهيؤها لاحتمال المعنيين، إما قبلها أو بعدها، وإلا لم تتهيأ التورية، أو تكون بلفظين أو أكثر لولا كل منهما لم تتهيأ التورية في الآخر، نحو قول الشاعر:

أُفُقُ الشِّدَادِ بَـدَتْ بِــهِ *** شَمْسُ الخِــلافَةِ وَالهِـلال

وَمِنَ العَجَائِبِ جَمْعُهُ *** لُبْثُ الشــرَافَة وَالغَــزَال

الشاهد في الهلال والغزال، فإنهما يحتملان أن يكونا بمعنى القمر وولد الظبي، وهذا هو المعنى القريب المورى به، ويحتمل أن يراد به جزآن من الرَحْل، فإن الهلال منفرج مقدّم الرحل، والغزال للرحل كالقربوس للسرج، وهذا هو المعنى البعيد المورى عنه، ولولا ذكر (الشداد) ما تهيأت التورية فيها.

ثانيا: الاقتباس والتضمين:

1-مفهوم الاقتباس:

الاقتباس في اللغة مصدر (اقتبس)، ومعناه أخذ من معظم النار شيئا، وذلك المأخوذ قَبَسٌ. أما اصطلاحا فالاقتباس تضمين النظم أو النثر بعض القرآن الكريم لا على أنه منه، بأن يقال فيه: قال الله أو نحوه، فإن ذلك حينئذ لا يكون اقتباسا.

2-أضرب أساليب الاقتباس:

لقد حرر علماء البديع قاعدة تنص على أن المقتبَس ليس بقرآن حقيقة بل كلام يماثله، وهم بهذه القاعدة إنما أرادوا إطلاق أيديهم في دراسة أساليب الاقتباس مادام حقيقة واقعة لا سبيل إلى إنكارها ودفعها. ولهذا صنّفوا هذه الأساليب إلى ثلاثة أضرب هي:

أولها: ضرب لا ينقل المقتبس فيه عن معناه الأصلي، مثل قول الشاعر وقد طلب من بعض أصحابه الذين بمكة حَبًّا فاعتذروا منه:

طَلَبْنَا منكم حَـبًّـا *** أَجَبْتُم فيـه بِالمَـنْـعِ

عَذَرنَـاكُم لأنَّكُـم *** بِوَادٍ غَيرَ ذِي زَرْعِ

فالمراد بـ(وَادٍ غَيرَ ذِي زَرْعٍ) مكة المكرمة، كما في قوله تعالى: "رَبَّنَا إِنِّي أَسْكَنْتُ مِنْ ذُرِيَّتِي بِوَادٍ غَيرَ ذِي زَرْعٍ".

ثانيها: ضرب ينقل عن معناه الأصلي بناء على أنه ليس بقرآن حقيقة، مثل قول ابن الرومي:

لَئِنْ أَخْطَأتُ في مَدحِكَ *** مَا أَخْطَأتَ في مَنْعِي

لقـد أَنْـزَلْتُ حـاجـاتي *** بِوَادٍ غَيرَ ذِي زَرْعِ

فإنه كنى بقوله تعالى في الآية: "رَبَّنَا إِنِّي أَسْكَنْتُ مِنْ ذُرِيَّتِي بِوَادٍ غَيرَ ذِي زَرْعٍ" عن الرجل الذي لا نفع لديه.

ثالثها: ضرب تغيّر فيه المقتبس بزيادة أو نقصان، أو تقديم أو تأخير، أو إبدال الظاهر من المضمر، أو نحو ذلك بناء على القاعدة التي تؤكد أن المقتبس هو غير القرآن، مثل قول أبي تمام يرثي ابنه:

كانَ الذي خِفْتُ أن يكونـا ***إِنَّـا إلى الله رَاجِعُـونَـا

فقوله: " إِنَّـا إلى الله رَاجِعُـونَـا" اقتباس لكنه زاد الألف في (راجعونا) على جهة الإشباع، وأتى بالظاهمكان المضمر في قوله: "إنّا لله وإنّا إليه"، ومراده آية الاسترجاع وهي قوله تعالى: "إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيهِ رَاجِعُونَ".

3-مفهوم التضمين:

أ/ لغة: التضمين لغة مصدر الفعل (ضمن) الذي من معانيه أن ما جعلته في وعاء فقد ضمّنته إياه، فالتضمين مثل الاقتباس يلتقي معه في إدراج شيء في شيء.

ب/ اصطلاحا: التضمين هو أن يُضَمِّنَ الشاعر كلامه شيئا من مشهور شعر الغير مع التنبيه عليه إن لم يكن مشهورا لدى نقاد الشعر، مثل قول الشاعر:

إذا ضاقَ صدري وخفتُ العِدا *** تمثلتُ بيتًا بحالي يليق

(فبالله أبلـــغُ ما أرتَجِـي*** وبالله أَدْفَـــعُ ما لا أُطِيقُ)

فقوله في الشطر الثاني من البيت الأول (تمثلت بيتا) تنبيه على أن البيت الثاني تضمين.

أما إذا كان مشهورا لدى القوم فيجوز ألا ينبّه عليه، مثل قول الشاعر:

قد قلتُ لما اطلعت وجناتــه *** حول الشقيق العضّ روضة آس

اعذاره الساري العجول ترفقا *** ما في وقوفك ساعة من بــاس

فالمصراع الأخير مطلع قصيدة مشهورة لأبي تمام:

ما في وقوفك ساعة من بــاس *** تقضي حقوق الأربع الأدراس